مجلة دراسات معاصرة؛ دورية دولية نصف سنوية محكّمة تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

الخطاب الديني المعاصر وإشكالية المرجعية
بين الصوفية والسلفية

د/مصابيح محمد
المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت

ملخص:

تعد إشكالية الخطاب الديني المعاصر من بين القضايا الشائكة التي لم تستطع الأمة الإسلامية حلها أو التوفيق بين أقطابها المتعددة، لدرجة أنه نتج عنها صدامات فكرية ما لبثت أن تطورت إلى عنف وعنف مضاد، في هذه الورقة نود أن نميط اللثام عن أهم كتلتين متمايزتين مكتسحتين الساحة السلامية احتدم الجدال بينهما منذ زمن ولا يزال، فكل منهما يرى ذاته وكيانه على حق وغيره على باطل، هما المتصوفة والسلفية، ومرجعية كل منهما.

الكلمات الدالة: الخطاب الديني-الصوفية-السلفية-المرجعية.

Abstract :

The problem of contemporary religious discourse is among the thorny issues that the Islamic Ummah has not been able to resolve or reconcile its multiple poles to the extent that it has led to intellectual clashes that have developed into violence and counter-violence.

In this paper, we would like to unveil the most important two distinct blocs that have swept the Islamic scene. The debate between them has been fierce for some time now, and each of them sees himself and his entity as right and others on the wrong side, the Sufis and Salafis, and their respective references.

Keywords : Religious discourse - Sufi - Salafi - reference.

توطئة:

قبل البدء لابد من لفت النظر إلى الخطاب الديني المعاصر و مأزقه بين الذات والموضوع وعدم التوفيق بينهما كونه خطابا قديما من حيث النصوص وجديدا متجددا من حيث الفكر في الآن نفسه ، فهو خطاب مثقل بحمولة لغوية حافلة بالدلالات لدرجة أنها صارت محل اختلاف وتصادمات فكرية ،بعدما كانت ولقرون محل اتفاق وتقارب، ولعل من أهم أسباب ذلك هو تداخل الديني مع السياسي في ضوء التاريخ الإسلامي المشحون بالخلافات والصدامات والفتن المتعلقة بقضية الحاكمية بعد انقضاء الخلافة الراشدة ، الأمر الذي يجعل النص الديني بصفته مدونة لسانية يفرض على الباحثين والدارسين بان يراجعوه ويتأملوا لغته في سياقها التاريخي، بكل إحالاتها التداولية ، وفك سننها لبلوغ مضان الخلاف والاختلاف الذي يعيشه الخطاب الديني منذ قرون من الزمن ، وفي هذا الخضم تحضرنا إشكالية المرجعية بين تيارات السالكين الصوفيين و السلفيين يمينيين ويساريين والإخوان ، وعلاقة كل منهم بشيخ الإسلام ابن قيم الجوزية وأستاذه الشيخ ابن تيمية رحمهما الله ، وذلك من خلال مؤلف الشيخ ابن القيم الشهير" مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد وإياك نستعين " حيث إن السؤال المطروح :أين نصنف ابن القيم ؟ أضمن مشايخ السلفية أم الصوفية مع ما يوجد بين التيارين من تنافر وتناطح ورفض كلا منهما للآخر.

مفهوم الخطاب:

الخطاب: من الألفاظ التي هيمنت على حقل الدراسات اللغوية ولقيت إقبالا واسعا من لدن الدارسين والباحثين، فهو كيان متجدد يولد في كل زمن ولادة جديدة تنسجم وخصوصية المرحلة، وهو كمفهوم لساني يمتد حضوره إلى النصوص المتعاليات من شعر جاهلي وقرآن كريم، و كذا في الدراسات الأجنبية ،حيث تمثل الأوديسا والإلياذة نماذج خطابات متفردة بغض النظر عن نوع الخطاب، ورغم قدم جذور هذه الكلمة في الثقافة العربية من حيث أصولها المقترنة بالنطق، فإن الكلمات ‹‹ استخداماتها المعاصرة، بوصفها

مصطلحا له أهميته المتزايدة تدخل بمعانيها إلى دائرة الاصطلاحية التي هي أقرب إلى الترجمة ،والتي تشير حقولها الدلالية إلى معان وافدة، ليست من قبيل الانبثاق الذاتي في الثقافة العربية، فما نقصد بمصطلح (الخطاب)؟ هو نوع من الترجمة أو التعريب لمصطلح Discourse في الانجليزية ونظيره Discoursفي الفرنسية أو ‹‹ Diskurs في الألمانية، ([1]) أما على مستوى الاشتقاق اللغوي مأخوذة من أصل لاتيني، هو الاسم Dircursus المشتق بدوره من الفعل Discursere الذي يعني (الجري هنا وهناك) أو (الجري ذهابا وإيابا) وهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي، وإرسال الكلام والمحادثة الحرة و الارتجال، وغير ذلك من الدلالات التي أفضت - في اللغات الأوربية الحديثة إلى معاني العرض والسرد،([2]) و"يعد خطابا كل ملفوظ أو مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات" ([3])

والخطاب أصناف، حيث تصنف الخطابات من حيث الموضوع إلى خطاب ديني، وخطاب علمي وخطاب أيديولوجي، وخطاب سياسي، أما من حيث البنية داخل ما يسمى بالخطاب الفني الإبداعي (الأدبي) فتصنف إلى قصيدة شعر ورواية وقصة ورسالة،أما من حيث الآلية المشغلة فينماز الخطاب بالسردي أو الوصفي أو الحجاجي .([4])

كما أن الخطاب مرادف للكلام، أي الانجاز الفعلي للغة، بمعنى اللغة في طور العمل أو اللسان ([5])الذي تنجزه ذات معينة، وهو يتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية ، فالخطاب يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل6 ، أي رسالة أو مقول و بهذا المعنى يلحق الخطاب بالمجال اللساني، لأن المعتبر في هذه الحالة هو مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجمل المكونة للمقول([7])، و أول من اقترح دراسة هذا التسلسل هو اللغوي الأمريكي (سابوتي زليق هاريس) ، كما أن الخطاب يعد الوسيط اللساني في نقل مجموعة من الأحداث الواقعية والتخيلية التي أطلق ([8])عليها (جينيت) مصطلح الحكاية.

والخطاب حسب (بنفنيست) E.Benveniste هو كل تلفظ يفترض متحدثا ومستمعا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال ([9])، و في الأخير نجد أن الخطاب في كل اتجاهاته يفهم بكونه اللغة في حالة فعل، ومن حيث هي ممارسة تقتضي فاعلاً وتؤدي من الوظائف ما يقترن بتأكيد أدوار اجتماعية معرفية بعينها، ولكي نبلغ ذلك ونتمكن من الخطاب لا بد لنا من آلية للتحليل في الحدود المذكورة آنفا، حيث "إن تحليل الخطاب يهتم أساسا بالبعد التداولي للغة، أي بما تقوم به من تأثير خلال عملية الاتصال وهذا ينفي عنه تماما التفتيش في النيات والضمائر، أو الدخول في عالم ما قبل القول،ولذلك سمى نفسه علم تحليل الخطاب وينبو عن استخدام مصطلح تحليل الأفكار لأن الأخير يوهم الدخول في نوايا المتكلم ويتوهم الوصول إلى المقصد الأصلي قبل الكلام ،وهذا فارق هام جدا يستحق التأكيد والإبراز". ([10])

الخطاب الديني الإسلامي:

هو كل خطاب يستند إلى مرجعية ذات أصول دينية إسلامية هي القرآن والسنة تحديدا ، و سائر الفروع الإسلامية الأخرى التي تولدت عنها ، كالفقه وأصوله ، والحديث وعلومه، والعقيدة وعلومها ، والتشريع و غيره ،مما ينتجه علماء الدين والدعاة منفردين أو في شكل منظمات ومؤسسات دعوية رسمية و غير رسمية ،جمعهم الاستناد إلى الدين وأصوله كمرجعية لرؤاهم و أطروحاتهم لإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمؤسساتية والثقافية التي يحيونها ، والخطاب الديني لابد له من التجديد في إطار أسس العقيدة الإسلامية ، وترتبط مضامينه بحاجات المسلمين ، وتتصل مقاصده لمعالجة التحديات التي تواجهها الأمة، وليس بخافٍ أثر المعركة الثقافية التي تديرها ضد الإسلام والمسلمين مؤسسات معادية ، يقف وراء حملاتها فكرٌ مضادٌ يستهدف كيان الأمة، يشن الغارة على أسسها وقيمها، وينسب إلى دينها قيّما باطلة صاغ منها مقولات الإرهاب الإسلامي والتخلف الإسلامي، وغيرهما من المقولات الباطلة، وهدفه إيجاد فاصل من التمييز والكراهية بين أمة الإسلام والأمم الأخرى.(11)

ينحصر المعنى فى مجمل التعريفات حول السعي لنشر دين الله عقيدة وشريعة وأخلاقاً، ومعاملات وبذل الوسع في ذلك ، لتعليم الناس ما ينفعهم في الدارين وبذل أقصى الجهد والطاقة من أجل خدمة هذا الدين الحنيف وامتثالا لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

التصوف في الإسلام.

جزء أساسي في التراث الإسلامي حيث تبوأ مكانا هاما في الفكر العربي الإسلامي، والاهتمام بالتصوف قديم جدا، تناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون كالطوسي، والكلاباذي والقشيري وغيرهم ، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن خلدون، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام إضافة إلى جهود المستشرقين، ولم يتفق هؤلاء على رأي

واحد سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله فاختلفت الآراء والمشارب حوله، فالتصوف ليس ظاهرة إسلامية خاصة بل إن جذوره وعروقه تمتد في كل فكر ديني عموماً، حتى إن كثيراً من الدارسين ربطه بأصول غير إسلامية كالمسيحية والهندية والفارسية والفلسفة اليونانية، بينما يرفض رأي آخر هذه الصلات جملة وتفصيلاً ويرده إلى أصوله الإسلامية ومنابعه الأولى القرآن والسنة([12]).

-التصوف من حيث الاصطلاح

لقد عرف التصوف تعاريف اصطلاحية كثيرة على آراء متقاربة، كل منها يشير إلى جانب رئيسي- في التصوف، والتي نختار منها قول الشيخ زكريا الأنصاري:" التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية" [13]

- وقال الشيخ أحمد زروق :"التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول" علم التوحيد "لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان ". وقال أيضا: "وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله ، وإنما هي وجوه فيه" [14]
- قال الإمام الجنيد :"التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني."
- قال الإمام أبو الحسن الشاذلي :"التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية". [15]
- قال الإمام ابن عجيبة :"التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة" [16].

ظهور الصوفية وأعلامها:

يرجع أصل التصوف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على العبادات واجتناب المنهيات ومجاهدة للنفس وكثرة لذكر الله إلى عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وعهد الصحابة، وأن أول صوفي هو نبي الإسلام محمد، لأنه بحد ذاته أول من دخل الخلوة في غار حراء [17]. وأن التصوف يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية ، وكوجهة نظر أخرى ، يرى بعض الناس أن أصل التصوف هو الرهبنة البوذية والكهانة النصرانية ، والشعوذة الهندية ، وأصول الديانة الفارسية التي ظهرت بخراسان [18] بينما يرفض الصوفية تلك النسبة ويقولون بأن التصوف ما هو إلا التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب ، وهو مرتبة الإحسان و اليقينية.

يقول الإمام القشيري: "اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول ﷺ ، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس - ممن لهم شدة عناية بأمر الدين - الزهاد والعُبَّاد، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة "([19])

يقول ابن خلدون: "هذا علم من العلوم الشرعية وأصله أن طريقة هولاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الحياة وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ولما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على الله باسم الصوفية والمتصوفة"([20]) .

وقد كان من أوائل من كتب في التصوف من العلماءالمسلمين:

- الحارث المحاسبي، المتوفى سنة 243 هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.
- أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة 277 هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله.
- أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفي سنة 378 هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف.
- أبو بكر الكلاباذي، المتوفي سنة 380 هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.
- أبو طالب المكي، المتوفى سنة 386 هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.
- أبو قاسم القشيري، المتوفى سنة 465 هـ، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.
- أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505 هـ، ومن كتبه :إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها

الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر كتب التصوف ومن أجمعها.وغير هؤلاء الأعلام كثير ممن تلوهم من المتصوفة المتأخرين الذين لا يتسع المقام لذكرهم كلهم.

أصول السلفية والوهابية و أعلامها :

السلف مصطلح مثير للجدل بين الفرق الإسلامية ، فعلى الرغم من اتفاق أغلب الفرق الإسلامية على المدلول العام للمصطلح ، إلا أنه يثير الخلافات عند تفصيل معناه وأهميته ، السلف لغةً بفتح السين واللام : الآباء أو الأجداد ، أما مصطلح السلف الصالح فهو تعبير يُراد به المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين وتابعيهم على اعتبار أنهم القدوة الصالحة.

والسلفية حركة ظهرت في أواخر القرن السابع الهجري على يد شيخ الإسلام أحمد بن تيمية من فقهاء الحنابلة كرد فعل على الإصلاحات العقلية التي أدخلها الإمام الأشعري على عقائد أهل الحديث ، واعتبر ابن تيمية أن تلك الإصلاحات خروجا " عن السنة ، فعمل على إحياء عقائد أهل الحديث مستنكرا التأويلات التي قدمها الأشاعرة بشأنها .([21])

وأطلق ابن تيمية على طريقته مسمى (منهاج السلف الصالح) ، فعرفت دعوته بالسلفية لأنه كان يدعو إلى العودة إلى سيرة السلف والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتي رأى أنه حاد عنها الأشاعرة والفرق الأخرى ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل عمل على إظهار عقائد جديدة لم ينادِ بها ابن حنبل ولا أحد قبله ، كقوله بأن السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ والاحتفال بمولده الشريف والتبرك بآثاره ، والتوسل به وبآل بيته بدعا " وشركا " ومخالفة لعقيدة التوحيد ، وأنكر ذلك ونهى عن إتيانه .([22])

وبسبب هذه التعديلات والإضافات ، فقد عد ابن تيمية عند أتباعه مجددا " عظيما " ولقبوه بشيخ الإسلام . ولكن دعوته على مستوى الأمة لم تلاق القبول وبقيت محصورة في مناطق محدودة من الشام ومصر ، وقد تصدى للرد عليه فقهاء ومحققو أهل السنة والفرق الأخرى ، وسجن في مصر لسنة ونصف لإدانته بالتجسيم والتشبيه ، ثم سجن ثانية في دمشق حيث أدركته المنية هناك عام 728 هجرية ، وما لبثت دعوته أن خبت وضعفت بعد حقبة قصيرة من الزمن .

والحركة الوهابية ، ظهرت في القرن الثاني عشر الهجري على يد محمد بن عبد الوهاب (ت 1206 ه) ، وعملت على إحياء الفكر السلفي لابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية و نشره في الجزيرة العربية ، ومنها إلى بلاد إسلامية أخرى ، وكان ابن عبد الوهاب أكثر صرامة وجدية من ابن تيمية ، حيث قام بتكفير عامة المسلمين بدعوى الشرك وعدم إخلاص التوحيد لله ،لما كانوا عليه من الدخن ومخالطتهم الدين بالبدع ، ودعا إلى إزالة ما يرونه بدعا بقوة السيف ، ومن ذلك تهديمهم آثار آل البيت النبوي في مكة والمدينة .

وبعد أن كانت هذه الحركة محصورة في بدايتها ضمن نطاق الجزيرة العربية ، إلا أنها أصبحت اليوم وبفضل إمكانيات الدولة السعودية تتمتع بامتدادات واسعة في مناطق عديدة من العالم الإسلامي .

ابن القيم والصوفية:

في هذا المقام لن نتحدث عن علاقة ابن القيم بالسلفية لأنه مرجعها الأساس ورجلها الثاني بعد الشيخ أحمد بن تيمية، لكن سوف نخوض في علاقة العلامة ابن القيم بالصوفية والتصوف، ومدى رضاه أو سخطه عن هذا السبيل من سبل العبادة والتقرب إلى الله عز وجل وذلك من خلال الخطاب و المعجم اللساني الموظف في مؤلفه مدارج السالكين، ومن أمثلة ذلك على سبيل الذكر لا الحصر، عندما يبين ويجلي ابن القيم طريق التصوف و يحذر مخالفيهم من الفهم السقيم عنهم قال ابن القيم في مدارج السالكين مانصه" : فاعلم أن في لسان القوم "أي الصوفية" من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص ، وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ماليس في لسان احد من الطوائف غيرهم ، ولهذا يقولون : "نحن أصحاب اشارة ولا أصحاب عبارة و"الاشارة لنا والعبارة لغيرنا".

وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى لا فساد فيه . وصار هذا سببا لفتنة طائفتين : طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدعوهم وضللوهم ، وطائفة: نظروا الي مقاصدهم ومغزاهم فصبوا تلك العبارات وصححوا تلك الاشارات ,فطالب الحق يقبله ممن كان ويرد ما خالفه على من كان." ([23])، وذكر قول الشافعي فيهم:" صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون :الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق، وإلا شغلتك بالباطل" قلت:يا لها من كلمتين، ما أنفعها وأجمعها، وأدلها

على علو همة قائلها، ويقظته ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم"([24])، وقال ابن القيم في مدارج السالكين: "فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها فإنها أصل البلاء ، وهي مرد الصديق والزنديق ، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ "اتصال ، وانفصال ، ومسامرة ، ومكالمة ، وأنه لا وجود في الحقيقة إلا وجود الله ، وأن وجود الكائنات خيال ووهم ، وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره ، فسمع منه ما يملأ الاذان من حلول واتحاد وشطحات ، والعارفون من القوم أطلقوا هذه الالفاظ ونحوها, وأرادوا بها معاني صحيحة في نفسها فغلط الغالطون في فهم ما أرادوه ونسبوهم الي إلحادهم وكفرهم."([25])،وفي هذا إقرار من ابن القيم لنهج الصوفية وشحنة الزمر المشحون بها ، وكيف افترق الناس على فهمها واستيعابها.

ومن هنا كانوا بين مكفر لهم ومتبع، وله في باب المقامات والأحوال آراء ،وهذا لا نجده سوى في قاموس الصوفية حيث قال ابن القيم في المدارج :" ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها ، كل يصف منازل سيره وحال سلوكه, ولهم اختلاف في بعض منازل السير : هل هي من قسم الاحوال ؟ والفريق بينهما : أن المقامات كسبية والأحوال وهبية. ومنهم من يقول : الاحوال من نتائج المقامات ، والمقامات نتائج الاعمال ، فكل من كان اصلح عملا كان اعلى مقاما وكل من كان اعلى مقاما كان اعظم حالا. " ([26]) ثم يذكر في فصل حسن الخلق ومكانته في الدين ،ما نصه:"الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وكذلك التصوف ، قال الكتاني: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف "([27]) كما يذكر عن شيخه(الهروي) من كتابه المنازل ما نصه"قال: واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوف هو الخلق، وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو بذل المعروف وكف الأذى"([28])،ومما تحدثنا في هذا المجال (التصوف والصوفية) لدى ابن القيم فلن نفيه حقه كيف وقد جند له مؤلفا قوامه ثلاثة أجزاء من القطع الكبير يتجاوز عدد صفحاتها الألفي صفحة كلها حول المدارج والمنازل والمقامات والأحوال ومقتضياتها في علم التصوف.

5 ومختصر القول أن ما يجمع شيخ الإسلام ابن القيم مع أعلام الصوفية الأوائل أكثر مما يفرق،فهو يحترم شيخه " الهروي" الصوفي ، ويقر له بالعرفان وهو : "شيخ الاسلام العلامة أبو اسماعيل عبد الله بن محمد الانصاري الهروي الصوفي." ويشاطره الكثير من علمه في هذا المجال لاسيما كتابه "المنازل" ([29])،كما أنه قد تطرق للمدارج الصوفية والمنازل العرفانية ومقاماتها ومفاهيمها ومقتضياتها وزلاتها و انحرفاتها وأغلاطها أكثر من أي عالم صوفي، لدرجة أن أتباع الطرق الصوفية اليوم يصنفونه من أعلام الصوفية، وهذا حكم لا مشاحة فيه إذ إن الصوفية كما السلفية كلاهما يدعي أنه على الهدى، كتاب الله وسنة رسوله.

الحقل المعجمي للخطاب الديني في المدارج.

وعودا على بدء سنعرض الحقل المعجمي الديني الذي يؤسس للخطاب الصوفي ويميزه دون سواه من الخطابات ،كما جاء به صاحب المدارج تحت مسمى منازل السالكين ،أو السائرين وقد رسّمها (المنازل) مرتبة كالآتي:[اليقظة-البصيرة-القصد-العزم-المحاسبة-التوبة-الإنابة-التذكر-الاعتصام-الفرار-الرياضة-السّماع-الحزن-الخوف-الإشفاق-الخشوع-الإخبات-الزهد-الورع-التبتل-الرجاء-الرغبة -الرعاية-المراقبة-تعظيم حرمات الله-الإخلاص-التهذيب والتصفية-الاستقامة-التوكل-التفويض-الثقة بالله-التسليم-الصبر-الرضا-الشكر-الحياء-الصدق-الإيثار-الخُلق-التواضع-الفتوة-المروءة-البسط-العزم-الإرادة-الأدب-اليقين-الأنس بالله - الذكر- الفقر- الغنى - المراد-الإحسان- الحكمة-الفراسة-التعظيم-الإلهام-السكينة-الطمأنينة-الهمة-المحبة-الغيرة-الشوق-الوجد-الذوق-اللحظ- الوقت-السرور-السر-النفس-الغربة-الغيبة-التمكن-المكاشفة-المشاهدة-المعاينة-الحياة-القبض-البسط- السكر-الصحو-الاتصال-الانفصال-المعرفة-الفناء-البقاء-التحقيق-التلبيس-الوجود-التجريد-التفريد-الجمع-التوحيد]، هذا المعجم وفق ترتيبه آنف الذكر يمثل مقامات السالكين للطريق المستقيم من بدايته إلى نهايته، أو كما أسماها ابن القيم منازل مابين أياك نعبد وأياك نستعين، والتي لا نجد لها أثرا أو ذكرا لدى الحركة السلفية الوهابية المعاصرة التي تنتسب حركيا وفكريا للشيخ ابن قيم الجوزية وشيخه ابن تيمية، ومقابل ذلك نجد أكبر متمسك بهذا الرصيد هم الصوفية ،فأين الخلل؟

شهادات حول خلاف السلفية والصوفية.

من السجالات اليومية بين الخطاب الصوفي والخطاب السلفي، يقول الباحث الإعلامي صبحي عبد السلام في مقال له تحت عنوان :حرب التكفير بين السلفية و الصوفية ، ما نصه: "يؤكد السلفيون أن أفكارهم ومنهجهم الدعوي قائم على صحيح الدعوة الإسلامية ويركزون على إطلاق اللحى وتقصير الثوب للرجال ولبس النقاب للسيدات وهو الأمر

الذي يراه الصوفيون أنه تركيز على الشكل و المظهر دون الجوهر وأن السلفية هي شكل بلا روح وأنهم جماعات متشددة ومتجهمة تحتفل وتحتفي بالطقوس على حساب الحقيقة الدينية وتتعامل مع الاسلام بشكل لا يقوم على الحب بقدر ما يقوم على المنفعة ، كما يتهم الصوفية السلفيين بأنهم مصابون بمرض التعالي على المجتمع الذي يعيشون فيه ولديهم شعور زائف بالاصطفاء.

أما السلفيون فيتهمون الصوفية بممارسة الشرك الخفي وأنهم يتبركون بالأضرحة و يلجأون للأولياء الصالحين لقضاء حاجاتهم ويصل بهم الأمر إلى تقديم الولي على النبي والإيمان بالحقيقة على حساب الشريعة وعدم الالتزام بالفرائض المعلومة من الدين بالضرورة ، كما يوجه السلفيون نقداً حاداً للسلوكيات التي تحدث في موالد الأولياء الصالحين التي يرتادونها ويحتفي بها الصوفيون ويؤكد السلفيون أن الموالد يحدث بها اختلاط بين النساء و الرجال ، مما يترتب على ذلك شيوع أعمال الفسق و الفجور في زحام الموالد ، كما أن هذه الموالد تشهد إقامة المراقص و الملاهي التي تعتبر خروجاً فاضحاً على اخلاق وتقاليد الدين ، بالإضافة إلى الغناء و الموسيقى المحرمة والماجنة ولا يقف السلفيون عند هذه الاتهامات ، بل إنهم يتهمون الصوفية بالاحتفاء بحلقات الذكر على حساب الصلاة ولا تخلو "مجلة التوحيد" السلفية في أي عدد من أعدادها من انتقاد الصوفية. "([30]).

هذه عينة من ألاف العينات الحديثة والمعاصرة التي تبين وتجلي الخلاف و التناطح داخل الخطاب الديني بين خطابين فرعيين أحدهما ضارب في القدم، ومؤسس فكريا ضمن المدونة الدينية والأدبية التراثية، والثاني كذلك مؤسس فكريا وتاريخيا لكنه حديث العهد مقارنة بالأول، ولو توغلنا إلى النصف الأول من القرن العشرين، على عهد الثورة الإصلاحية والسياسية التي كانت تمهد لدحر المستعمر، فنجد ذات الصراع قائما وبذات الحدة، إذا يقول الإمام ابن باديس: "إن المصلحين ما تصدوا لمقاومة الطرقية إلا بعد أن رأوا رؤساءها قد قعدوا للمسلمين على رأس كل طريق للخير يصدونهم عنه، قعدوا على طريق التوحيد.. و أبوا إلا أن يحلف الناس بهم وإلا أن يخضعوا لهم ويرجوا تصرفهم لهم ويخافوا دعوة شرهم...إلى أن يقول: فبعد هذا البيان لا نظن أحدا من أهل العلم والدين والنصح للإسلام والمسلمين يتردد في استصواب ما سلكه المصلحون من مقاومة الخرافات الطرائقية وضلالاتها ومضارها" ([31]).

ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي ما نصه" إن سبب الخلاف بيننا وبين هؤلاء ليس في مسائل علمية محصورة يعدونها في كل بلد بعدد ويكثرون حولها اللغط ليوهموا الناس أن الخلاف علمي...وإنما الخلاف بيننا وبينهم في طرقهم وزواياهم، وما يرتكبونه باسمها من المنكرات التي فرقت كلمة المسلمين، وجعلت الدين الواحد أديانا، فقلنا لهم ولا نزال نقول "لا طرقية في الإسلام" واقمنا على ذلك الأدلة من الدين وتاريخه الأول والعقل ومقتضياته" ([32])، ويقول أيضا:"أما والله ما بلغ الوضّاعون للحديث و لا بلغت الجمعيات السّرية ولا العلنية الكائدة للإسلام من هذا الدين عشر معشار ما بلغته هذه الطرق المشؤومة"([33]).

ومن هذا المقام نكتشف أن الإشكالية لا تتعلق بالخطاب الصوفي الأصيل بقدر ما تتعلق بالطرق التي نشأت عنه والتي سميت بالطرقية هذا المصطلح الذي علق بالتصوف على مستوى السلوكات، وأفسد التصوف وغاياته الروحانية السامية، وحوله إلى منافع دنيئة يتمتع بها بعض المنتمين بالوراثة من الجهّال على حساب شرائح واسعة من عوام الناس سخروا طيعين في أيديهم كمريدين ،مع أن المشائخ الجهّال لم يبلغوا من التصوف حتى قشوره، ادعوا العلم والكرامات والأسرار ليأخذوا بها عهودا من مريديهم لاستعبادهم وتسخيرهم للمنفعة الخاصة على المستويين الاجتماعي والسياسي وحتى الاقتصادي، وبهذا فإن الخلاف القديم الجديد بين فروع الخطاب الديني لاسيما الصوفي منه والسلفي هو خلاف هامشي وليس أساسي، أو كما يقول نصر حامد أبو زيد :"إن الخلاف بين الاعتدال والتطرف خلاف هامشي وليس خلافا أساسيا، إنه خلاف حول مجال تطبيق المبدأ لا حول المبدأ ذاته" ([34])فالمشكل الذي تسببت فيه الطرقية قديما وحديثا يتعلق بالسلوكيات التي لم تكن من صميم الدين، بل كانت تسيء إليه أكثر وتوحي للعامة (المتلقي) بأنها تخدمه وأنها من صميمه، لكن السؤال المطروح هنا، هل هذه السلوكات الدنيئة من الطرقيين قديما وحديثا، عفوية أم مفتعلة ؟ وإن كانت مفتعلة فمن وراءها؟

بالنسبة للخطاب الديني هناك خلط بين مفهوم الدين ومفهوم الفكر الديني إذ" لا بد من التمييز والفصل بين "الدين" والفكر الديني ، فالدين هو مجموعة النصوص المقدسة الثابتة تاريخيا ، في حين أن الفكر الديني هو الاجتهادات البشرية لفهم تلك النصوص وتأويلها واستخراج دلالتها. ومن الطبيعي أن تختلف الاجتهادات من عصر إلى عصر، بل ومن الطبيعي

أيضا أن تختلف من بيئة إلى بيئة-واقع اجتماعي تاريخي جغرافي عرقي محدد -إلى بيئة في اطار بعينه، وأن تتعدد الاجتهادات بالقدر نفسه من مفكر إلى مفكر داخل البيئة المعينة." ([35])

إن الاجتهادات على هامش الخطاب الديني ظلت مطية سهلة تقحم الجماعات الدينية الوصولية من خلالها أي ذريعة ولو ملفقة للدين لتبرير مواقفها ، التي تكون في الغالب دنيوية وليست دينية،لأنه "حين يتحول الصراع الاجتماعي السياسي من مجال الواقع إلى مجال النصوص ، يتحول العقل إلى تابع للنص، وتتحدد كل مهمته فى استثمار النص لتبرير الواقع أيديولوجيا ، وينتهى ذلك إلى تأبيد هذا الواقع من جانب مفكري السلطة والمعارضة على السواء، طالما تحول الصراع إلى جدل ديني حول تأويل النصوص." ([36]) التي هي في الواقع تهدي إلى أصل واحد ومنطلق واحد، إلا أنه تأدلجت عن طريق التأويلات الذرائعية حتى تبرر موقف دون موقف آخر.

وخلاصة القول :

إن مفهوم النص- لا النص ذاته – في الثقافة لا يلغي التطور الفكري بما يتماشى والنمو الذي تشهده المجتمعات العربية والإسلامية ،إذ يرى صاحب كتاب " نقد الخطاب الديني" أن كل اتجاه ديني له طريقته الخاصة في قراءة النصوص الدينية مما يطرح إشكالية قراءة النص الديني وانعكاس اختلافات القراءة على ما يدور في الواقع من معارك شاملة على كل المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في الوقت الذي يجب أن يكون الدين فيه عنصر- أساس في مشروع النهضة، حيث أن الخلاف كله مرده إلى المقصود من الدين طرحا وممارسة أيديولوجية براغماتية من جانب كل الأطراف المتنازعة لهذا الخطاب(الصوفية بكل طرقها ، السلفية المعتدلة ،السلفية المتطرفة ، الإخوان ، اللامنتمون ، العلمانيون...) أو هو النص الديني بعد التحليل والفهم والتأويل العلمي الذي ينفي عنه كل ما علق به من الخرافات عبر التاريخ، مستبقيا ما فيه من قوة دافعة نحو التقدم والعدل والحرية[37] أما فيما يخص المنطلقات الفكرية للخطاب الديني على مر العصور ظلت منحصرة في اثنتين هما : النص و مبدأ الحاكمية الذي قام عليه فكر كل من أبي الأعلى المودودي وسيد قطب حيث إن الخطاب الديني هنا يظل موجها النص المقدس، نحو الحاكمية الإلهية التي تناقضها حاكمية البشر، التي بدورها صنعت خطابا معارضا، وأما الآليات التي ظل الخطاب الديني يتوسلها حسب نصر حامد أبي زيد، فتكمن في :

1– **آلية التوحيد بين الفكر والدين**. بمعنى "أن للإسلام معنى واحدا ثابتا لا تؤثر فيه حركة التاريخ، ولا يتأثر باختلاف المجتمعات، فضلا عن تعدد الجماعات بسبب اختلاف المصالح داخل المجتمع الواحد" ([38]).

2– **آلية الاعتماد على سلطة السلف.** تحكيم سلطة السلف وإلغاء سلطة العقل" فالإسلام حوار مستمر بين النص الديني والحياة الواقعية، أو جدل دائم بين ثابت أزلي وبين متغير متجدد" ([39]).

3– **آلية اليقين الذهني والحسم الفكري** . أصحاب هذا الخطاب لايقبلون بالاختلاف على اعتبار أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة وبذلك يلجأون إلى لغة الحسم الفكري كمنطلق إيماني يقيني .

4– **آلية رد الظواهر إلى مبدأ واحد** . هذه الآلية " امتدادا للموقف الأشعري، الذي ينكر قوانين السببية في الطبيعة والعالم لحساب "جبرية" شاملة ، تمثل غطاءا أيديولوجيا للجبرية الاجتماعية والسياسية في الواقع". ([40])

5– **آلية إهدار البعد التاريخي.**هذه الآليه جاءت كنتيجة عن آلية التوحيد بين الفكر والدين وعليه إلغاء كل تطور تاريخي.

كما إن النص الديني تسبقه الآليات منطة إياه على الشكل الذي يلغي تماما المسافة المعرفية بين الفكر والنص المقدس،مما ألغى أو أهدر دور العقل الذي ميز الله به بني البشر،وبالتالي تسبب في الجمود الذي يعرفه العالم الإسلامي والذي لا يمكنه التحرر منه مالم يتحرر من آليات الخطاب آنفة الذكر.

الهوامش:

1. ينظر: جابر عصفور ، آفاق العصر ، ط1 ، دار الهدى للثقافة والنشر ، سوريا - دمشق ، 1997 ص 47 .

2. المرجع نفسه ، ص 48 – 47.

3. أحمد المتوكل ،الخطاب وخصائص اللغة العربية، منشورات الاختلاف/الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1 2010. ص24.

4. المرجع نفسه.ص25.

5. ينظر: سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ط3 المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء 1997ص21.

6. ينظر: دومينيك مانقونو : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ،تر، محمد يحياتن،ط1،منشورات الاختلاف،الجزائر 2005،ص35.

7. إبراهيم صحراوي : تحليل الخطاب الأدبي ،ط1،دار الآفاق الجزائر،1999،ص10

8. جيران جينيت: خطاب الحكاية ،تر،محمد معتصم وآخرين،ط3،منشورات الاختلاف،2003،ص39-38.
9. محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة ، مركز النشر الجامعي ، تونس، 2004 .ص1
10.نصر- حامد أبو زيد،نقد الخطاب الديني،دار سينا للنشر،ط2 ،1994،القاهرة،ص 27.
11.ينظر: الدسوقي محمد ،تجديد الخطاب الإسلامي، مجلة منار الإسلام الإماراتية، صفر 1423- مايو2001،ص57
12.فاطمة داود - التصوف الإسلامي، مفهومه وأصوله - جامعة مستغانم،ويكيبيديا العربية https://ar.wikipedia.org
13.الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري ،دار الكتب الحديثة القاهرة، حاشية ص7.
14.أحمد زروق الفاسي ،قواعد التصوف، دار الكتب العلمية،2000 ، قاعدة 13 ص 6.
15.حامد إبراهيم محمد صقر ، نور التحقيق في صحة أعمال الطريق ، دار التأليف، مصر، 1970، ص93.
16.أحمد بن عجيبة الحسني، معراج التشوف إلى حقائق التصوف،تح:عبد المجيد خيالي،مركز التراث الثقافي العربي ،الدار البيضاء، ص4.
17.ينظر: عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1989ص 28 - 37
18.المرجع نفسه والصفحة نفسها.
19.عبد القادر عيسى ،حقائق عن التصوف، مخطوط ،موقع الطريقة الشاذلية،(دط)(دت) ص30.
20.عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة ، فصل علم التصوف، دار الفكر بيروت ،2007،ص490.
21.ينظر: أسعد القاسم،أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة،مخطوط (دت)،المكتبة الشيعية،ص262.
22.ينظر: المرجع نفسه،ص 262.
23.ابن قيم الجوزية،مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد وأياك نستعين،الجزء الثالث،دار الكتب العلمية، ط1، بيروت (دت) ص354.
24.المصدر نفسه،ج3 ص 143.
25.المصدر السابق ،ج3 ص158.
26.ابن قيم الجوزية،مدارج السالكين،الجزء الأول،مؤسسة المختار للنشر،القاهرة، ط1،2001 ص126.
27.ابن قيم الجوزية،مدارج السالكين،الجزء الثاني،مؤسسة المختار للنشر،القاهرة، ط1،2001 ص 55.
28.المصدر نفسه،ص 63.
29.الكتاب هو: منازل السائرين، لمؤلفه عبد الله الأنصاري الهروي، الناشر: دارالكتب العلمية، سنة النشر: 1988 هذا الكتاب شرحه وحل غوامضه الإمام ابن القيم في كتاب مدارج السالكين.
30.المصدر: http://www.masreat.com/?p=1226
31.مقال : الأستاذ محب الدين الخطيب لمقاومة الطرقية والطرقيين، الشهاب ،المجلد 10/الجزء5،محرم 1353هـ أفريل 1934،ص210-212.
32.أحمد طالب الإبراهيمي، أثار الإمام البشير الإبراهيمي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي،1997 ص 303.
33.المصدر نفسه ، ج1 ص 171.
34.نصر- حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، دار سينا للنشر،ط1994،2،القاهرة،ص 70.
35.المرجع نفسه، ص 197.
36.المرجع نفسه،ص 198.
37.ينظر تقرير محمود علي مكي حول كتاب "نقد الخطاب الديني" لنصر حامد أبي زيد، ط2 ص 10.
38.نصر حامد أبو زيد، " الخطاب الديني، رؤية نقدية..." دار المنتخب العربي دراسات إسلامية، بيروت- لبنان ،ط1 ، 1992 ص: 23.
39.حيدر إبراهيم علي،"الاتجاه السلفي"مجلة عالم الفكر المجلد 26 العددان 3- 4 يناير 1998 ص:13
40.نصر حامد أبو زيد، الخطاب الديني رؤية نقدية، ص25. مكتبة البحث